ISSN: 2588-2384

مجلة المعيار

2018 السنة: 44 عدد: 22مجلد:

الهوية الثقافية بين التراث والحداثة قراءة في خطاب داريوش شايغان

فطيمة بوالطين

طالبة دكتوراه قسم العقيدة ومقارنة الأديان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة .

boutinej@gmail. com

تاريخ الوصول: 2017/10/16 / القبول:2018/05/23 / النشر على الخط: 15/06/ 2018

Received:16/10/2017/Accepted: 23/05/2018/ Published online: 15/06/2018

الملخص

قدم المفكر ***داريوش شايغان*** قراءة لأزمة الهوية في العالم الإسلامي خصوصا والحضارات التقليدية على وجه العموم، كإحدى إشكالات الفكر المعاصر. معتبرا أنها ناتجة عن الاحتكاك الثقافي بين الشرق والغرب، لا باعتبارهما حيزا جغرافيا، بل لكونهما مقولتان فلسفيتان، وبين الرجوع إلى التراث لحماية الذات الثقافية، أو تبني الحداثة كسبيل إلى النهوض الحضاري، أو اتخاذ الحياد حيال الأزمة الراهنة، تتعدد ردود الأفعال بناء على الخلفية المستند إليها. لذلك فإن شايغان قام بتحليل الرؤى التي تتحكم في الموضوع من حيث بنيتها الفلسفية أو توجهها الديني، موجها نقده إلى الأسس التي تحكم كل اتجاه، بما في ذلك منهج التفكير عند المسلمين وقصوره عن استيعاب متطلبات المرحلة الراهنة. ولذلك فإن شايغان قدم مقاربة لفهم الأزمة كما هي من دون التنكر لمنجزات الحضارة الإسلامية من جهة، أو التعصب لها ضد الآخر من جهة أخرى، كخطوة أولى حماية للحضارات التقليدية من الزوال أمام المد الحداثي، أو ربما سبيلا لاستحداث مصالحة بين التقنية والتراث .

الكلمات المفتاحية: الهوية الثقافية،داريوش شايغان،الشرق،الغرب،الأنا ،الآخر،حوار الحضارات،صدام الحضارات،التراث،الحداثة،

the cultural identity between heritage and modernity, a lecture over the speech of Dariush Shayegan

Abstract :

The thinker Dariush Shayegan presented a reading of the identity crisis particularly in the Islamic world and traditional civilizations in general, as one of the contemporary thought problematics. Considering it a result of the cultural friction between East and West, not as a geographical space, but philosophical statements, and between returning to the heritage to protect the cultural identity, or adopting

modernity to promote civilization, or taking a neutral position about the current crisis, there was different reactions based on the background based on. Therefore, Shayegan analyzed the visions controlling the subject, according to its philosophical structure or religious orientation. Giving his criticism to the foundations that leads each direction, including Muslims' way of thinking and its inability to respond to the requirements of the current stage So, Shayegan provided an approach of understanding of the crisis as it is, without denying the Islamic civilization's achievements on the one hand, or extremism against it on the other, as a first step to protect the traditional civilizations from the demise of the modern tide, or somehow a way of developing a reconciliation between technology and heritage.

Key words :

east, west, the ego, the other, Dialogue of civilizations, conflict of civilizations, heritage, modernity

مقدمة:

برزت على الساحة الفكرية سجالات حول الهوية من حيث الإشكالات والمضامين وقبل ذلك من حيث التأسيس والمرجعية المستند إليها، وهي حديثة التبلور في الفكر الإسلامي.

وقد طرح سؤال الهوية بعد الصدام الحضاري بين الشرق والغرب وحتى نكون أكثر دقة سنتحدث عن العالم الإسلامي في ظل ذلك؛ وقوفه في المنتصف من دون تحقيق خيار الحداثة وفاء لتراث ما عاد باستطاعته تقديم المزيد من الإجابات الشافية للوضع الراهن على الأقل. ما أنتج ركودا على مستوى التأسيس من أجل استحداث بنى جديدة تفي بمستلزمات المرحلة الحالية من حيث إنتاج المفهوم وتفعيله.

لكن لم سؤال الهوية؟ ثم هل يمكن الاستناد إلى هوية واحدة في العالم الإسلامي على اتساع مشاربه الفكرية وبناه العقائدية وانتماءاته الطائفية!

إن الذين أثاروا سؤال الهوية واستشكلت إجابته عليهم هم منتمون غالبا إلى تيارات علمانية إن صح هذا التعبير، أولئك عاشوا صدام الحضارات الشرقية والغربية، ومعظمهم كان قد تلقى تعليمه في جامعات غربية عريقة، ما فجر سؤال الهوية لديه ؛من حيث القيم والموروث الذي يشده إليه من جهة، ومن حيث الثقافة الحديثة التي اكتسبها في البيئة الغربية من جهة أخرى، ناهيك عن العلم والتقنية التي تسيطر عليها، والمناقضة بشكل شبه كلي لروحانية الشرق عموما وإيران على وجه الخصوص. بيئة الشخصية محل الدراسة. وغالبا ما كانت نشأة التيارات التحديثية خارج الإطار الديني، أما التيارات الدينية المحافظة فإن إشكالية الهوية بالنسبة إليها منتهية ومحددة سلفا. ما يعني أن الاحتكاك بالثقافة الغربية أنتج إشكالات جديدة لم تكن مطروحة على الساحة الفكرية الإسلامية. بالإضافة إلى أن عقدة الغرب كلما تضخمت أحدثت تصدعات على مستوى الأنا الخاصة.

هذه الشعوب الرافضة للانسجام مع رؤية العالم وفق المنظومة الحداثية لم تع التغريب الذي سرى بداخلها، ولا التحولات الرهيبة التي حدثت لها من دون الاستناد إلى منظومة واضحة فلسفيا. ما جعلها في سجالات غير ممنهجة، مع الانشغال باجترار إشكالات تاريخية غارقة في القدم من دون إيجاد أجوبة أو تحقيق تجاوز لها.

ويعد داريوش شايغان* أحد أهم الأصوات الفكرية التي طرحت الموضوع وناقشته من زوايا متعددة؛كونه الشرقي المعترف بنفائس ماضيه، وبعلل حاضره، مفكر متشبع بروح الشرق وبتكوين في واحدة من أعرق جامعات الغرب. لذا فقد «تمحور مشروعه الفكري حول الفروقات الأساسية التي أضافتها الثقافة الغربية الحداثية إلى الثقافة الإنسانية، وعمل على فكرة النقد الروحي لمكتسبات الحداثة.... وهو بذلك يمارس عملا مزدوجا؛وجهه الأول يتمثل في الاستقاء المفهومي والمنهجي والنقدي من الغرب، ووجهه الآخر توظيف تلك العدة المستقاة في السبر عن الأزمات النوعية والطارئة في هذه الثقافة»[1].

لكن ينبغي الإشارة إلى أن «الشرق والغرب ليستا مقولتين جغرافيتين تقعان في مكان ما من الأرض، بل هما في العمق رؤيتان إلى العالم، وطريقتان في التفكير فيه»[2]. والهوة بين العالمين امتدت من الفكر إلى الواقع، والصدام بينهما أنتج مفارقات كبيرة وفجوات عميقة إن على مستوى المفاهيم أو غيرها. هنا وجد العالم الإسلامي نفسه بين خيارات ثلاثة ؛فإما الذوبان في الحداثة بعد استيرادها من مضانها الأصلية، وإما التشبث بتراث فقد فاعليته على مستوى الإشكالات المستحدثة، وإما استيعاب هذه النقلة الحضارية ومحاولة بناء الذات من دون التفريط في المقومات الأصيلة لمنابعه الثقافية دون إهمال المسار الحداثي؛ لا بتبنيه جملة وتفصيلا وإنما بمحاولة الاستفادة منه مع مراعاة الفروقات الجوهرية بين بيئتين يختلف انتماؤهما حضاريا بين شرق وغرب.

«الحداثة في أيامنا واقع ساطع لا يمكن إخفاؤه. فهي تزعج، تزعزع، وتغير، لكنها تخلق أيضا مقاومات سلفية، وتعزز بشكل تناقضي دور أولئك الذين تسعى لاستئصالهم»[3]. مصداقا لمقولة :لكل فعل ردة فعل مساوية له في القوة معاكسة له في الاتجاه. لذلك فالتيارات السلفية باعتبارها رافضة للحداثة تنظر إلى الواقع بعيون التراث والأقدمين، ولا تعترف بمشروعية استحداث بنى جديدة تتناسب والمرحلة الحالية.

في تحليله لمسألة الهوية تتبع شايغان الإشكال من بداياته الأولى، وقد محوره حول منهج التفكير الحديث لدى المسلمين، وقصوره عن الحفاظ على الذات الثقافية التي تحفظ الهوية الإسلامية الخاصة أو الشرقية عموما. وغالبا ما أورد مقولاته في

* – مفكر إيراني ولد سنة 1935، وتتلمذ على المستشرق الكبير هنري كوربان، درس في إيران وإنجلترا وسويسرا وفرنسا، وحصل على دكتوراه الدولة في باريس سنة 1968، عن بحث الهندوسية والصوفية، وشغل بعد ذلك كرسي أستاذ في الفلسفة المقارنة بجامعة طهران، ثم عيّن سنة 1977مديرا للمركز الإيراني للدراسات الحضارية حتى سنة 1979، ليغادر بعدها إلى باريس بعد انتصار الثورة الإسلامية، حيث عيّن مديرا لمعهد الدراسات الإسماعيلية حتى سنة 1988، كتب شايغان بالفارسية والفرنسية ومن أهم . مؤلفاته:الهندوسية والصوفية، ما الثورة الدينية الحضارات التقليدية في مواجهة الغرب، الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية، النفس المبتورة هاجس الغرب في مجتمعاتنا، أوهام الهوية... يُنظر داريوش شايغان، ما الثورة الدينية الحضارات التقليدية في مواجهة الغرب، المؤسسة العربية للتحديث الفكري، جنيف، دار الساقي، بيروت، ط1، 2004، ص ص10-11. (مقدمة المترجم).

1. الحاج دواق، أوهام الهوية والتحول الجذري قراءة في كتاب داريوش شايغان، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط. ص 1.

2. الحاج دواق، المرجع نفسه، ص 6.

3. داريوش شايغان، النفس المبتورة هاجس الغرب في مجتمعاتنا، دار الساقي، لندن، ط1، 1991، ص 189.

موطن المقارنة بين الشرق والغرب.. أو المسلمين والغرب، وهذا التقسيم نابع من رؤيته الفلسفية التي لا تتسم بإلغاء الموروث بقدر إحداث نوع من التصالح معه يجعله في استعداد دائم للمساءلة أمام الوضع الراهن والتحديات المعاصرة.

وعليه، فقد اعتبر مكافحة الذاكرة «أحد العناصر المهيمنة في منهج التفكير الحديث لدى الغربيين، والذي يسعى أن يكون قبل كل شيء تفكيرا تجريبيا يبتني على شيئية الحقائق العينية. أضف إلى ذلك أن هذا السياق يدل بدوره على مزيد من الفرز بين العلم الشهودي والعلم العملي، وبين الدين والفلسفة، وبين الروح والجسم. من جهة ثانية كان هذا البون الجذري موجودا منذ البداءة إلا أنه لم يتحرك ولم يعلن عن نفسه رسميا إلا مع بيكون الذي جعله منهجا جديدا في البحث، من بيكون إلى ماركس تطوى تحولات الفكر الغربي سبيلها المنطقي المتوقع»[1]. هذا الفصل بمثابة حماية للعقل من الميثافيزيقا.

ثم، هل بالإمكان المصالحة بين التقنية والتراث وإنقاذ الذاكرة القومية، وفي الوقت ذاته تحمّل آلام «مكافحة الذاكرة»[2]. باعتبار الذاكرة الجمعية إحدى أهم مكونات الهوية الثقافية. كما أن «جميع القيم التي تراكمت عبر آلاف السنين، وكل الجهود التي بدلت في سبيل تثقيف الروح، والنظرة إلى العالم، قد غدت فجأة مجرد أوهام. وإن الحقيقة ليست سوى إرادة القوى، هذه المرتسمة على وجه الإنسان التكنولوجي»[3].

ورغم كل التطورات التي تحدث إن على مستوى العلوم الإنسانية أو الطبيعية أو التقنية فإننا «لا نزال نراوح في حقبة معتقدات ساذجة ترجع للقرن التاسع عشر، ونتحدث عن مستقبل العلم بتفاؤل غامر، وكأننا ننتظر مسيح آخر الزمان. الازدواجية المرضية التي أضحت ساحة لسجالات الوجهين المتناقضين في وجودنا، تشل مساعينا وتصدنا عن التحرك وشد الطريق أمام ازدهارنا الفكري. والفكر لا يبدو مبدعا منتجا إلا إذا استعاد ذاكرته، أي إذا استمد الفيض (من مشكاة أنوار النبوة)كما يعبر الحكماء المسلمون، أو إذا كان مستقلا تماما، أي إذا تخلى عن أرضية الاستذكار القومي، وخاض في كل الغمار العاتية من أجل ترسيخ مرتكزات جديدة»[4]. وهنا نقطة التيه إن صح هذا التعبير بين فقدان الذاكرة أو ترسيخها، أما التوسط بينهما فهو ضرب من الركود الحضاري.

ثم إن الفكر في تطور دائم ومستمر، و«إذا كان الفكر اليوناني مركزه الكون، والفكر المسيحي مركزه اللاهوت البشري، فقد غدا الفكر مع العصر الحديث بشري المركز، وذلك لان الفلسفة قد اختزلت في الأنثروبولوجيا. بعد ذلك حل الفكر العلمي التقني المتحدر من علوم الطبيعة، محل الأشكال التأملية من المعرفة التي تأسست عليها، بالتحديد القيّم التي جعلت ممكنا قيام علاقات عميقة بين مختلف الحضارات»[5]. هذا الفكر العلمي الملغي للروح يبتني على ماهو بشري ويبعد ما هو ميثافيزيقي وغير محسوس.

لذلك فقد شغل التفكير العلمي ـالتقني ـ مكان المعرفة التأويلية والعرفانية، هذه الأخيرة حسب شايغان «قد حافظت على القيم وأهلتها لتسهيل التواصل بين الحضارات ما أنتج توازنا مختلا؛ ففي تلك الجهة تتفاقم الهيمنة والسلطوية

1. داريوش شايغان، الأصنام الذهنية، والذاكرة الأزلية، ترجمة حيدر نجف، دار الهادي، بيروت، ط1، 2007، ص31.

2. المصدر نفسه، ص24.

3. داريوش شايغان، أوهام الهوية، ترجمة محمد علي مقلد، دار الساقي، بيروت، ط1، 1993، ص9.

4. داريوش شايغان، الأصنام الذهنية، المصدر السابق، ص28.

5. داريوش شايغان، أوهام الهوية، المصدر السابق، ص 8.

والممارسات العدوانية والاستعمار، وفي هذه الجهة تتجلى للعيان محاولات دفاعية منفعلة تتبدى على صورة شلل ذهني. مثل هذا الواقع لا يترك مجالا للحوار والتفاهم. كل ما هنالك عبارة عن محض تخريب للحضارات المحلية التي لم يبق منها غالبا سوى قشور (فولكلورية)»[1]. تحاول باستمرار الصمود أمام المد التقني الذي لا يتجاوزها فقط بل يلغيها من الفاعلية في مجتمعاتها التي احتوتها قبل ذلك، بل وكانت جزءا مهما من هويتها الثقافية ووجها من وجودها الحضاري.

وبالتالي فإن «الحضارات التقليدية تجتاز اليوم أزمة الهوية ذاتها، وهذه الأزمة متصلة بالانقلابات الكبرى التي ولدتها عبر العصور الحضارة الحديثة، ذلك يعني أن هذه الأخيرة تحتل في تاريخ البشرية مكانة استثنائية»[2]. وهنا ستكون العلاقة بين سيد وتابع لعدم تكافؤ القوى بين الطرفين، والأمر يصدق على كافة الحضارات التقليدية التي لم تتبن الحداثة كليّة.

«وطالما بقي الغرب سيد مصيره، ومؤمنا ثابت الإيمان برسالته في تحضير البشرية، فلن يكون للهويات الثقافية في البلدان الخاصة أية فرصة للتعبير عن نفسها، ومن باب أولى لتوكيد ذاتها. لا شك أن ثورات تندلع هنا وهناك إلا أن المطالب لم تكن مرة واضحة أو معبرا عنها في صيغ محددة. وتبقى فكرة الهوية الثقافية مجرد مفهوم غلابي.. فالحداثة في نظر من يعيش داخل تراثه الخاص تبقى حاضرة وماثلة في تجربة المعاش، بحيث لا تسمح بقيام أية مسافة أو أي تراجع ضروريين لتمثيل الذات»[3]. كما أن صدّ الحداثة بدافع الحفاظ على الهوية الخاصة لا يمنعها من أن تكون حاضرة في حياة الأفراد، ومتجلية في مسارات المجتمعات، باعتبارها نابعة من الحضارة الأقوى، خاصة في ظل الإعلام والاتصال الميسر.

ومن خلال ما سبق فإن «هذا التغيير في المنظور لم يقتصر فعله على إلغاء فضاءات التحولات السحرية، وعلى الإخلال بالتوازن بين العنصرين الأساسيين في كل حوار حقيقي :المساواة الروحية بين القوى والتجانس البنيوي في التجربة الميتافيزيقة، مذ ذاك أخذت تحل تغيرات قليلة محل تحويل الأشكال الرمزية من الروح ؛وفي حين يعتبر التحويل بمثابة انفجار محتوى غريب داخل أشكال غير ملائمة لاحتوائه. وتكون نتيجة ذلك ظهور أشكال هجينة لا تتكيف مع روح المحتوى المفروض فرضا، ولا مع قوالب الثقافة المهيأة لاحتوائها»[4]. والتجارب الميثافيزيقية هي إحدى السمات البارزة للحضارة الشرقية عموما والإسلامية على وجه الخصوص، وفقدانها دون استحداث بديل يمكنه أن يمنع تحقيق خيار حضاري واضح وسليم. وهذا ما سيخلق حسب شايغان قطيعة ابستيمولوجية مرتبطة بخلط مستويين من الحقيقة؛ الأسطورة والعقل، واختزال أحدهما في الآخر، أو دمجهما معا سيؤدي حسبه إلى اعوجاج إيديولوجي.

وكل اعوجاج في عالم الأفكار سيؤثر سلبا على الحياة العملية لعالم الأشخاص لا محالة، للارتباط الوثيق بين الفكر والواقع.

«لهذا فإن أي حل نسبي لهذه القطيعة التاريخية يطرح مشكلة الانتقال من الأسطورة إلى العقل برمتها، فهذا الانتقال هو قبل كل شيء مسألة وعي، وبمعنى ما، طالما لم يعش البشر ضرورة الحداثة، فإن هذه الأخيرة تبقى دائما شكلا معاديا مفروضا عليهم من الخارج»[5]. واستيراد الحداثة لا يحل مشكلة مجتمع فاقد للوعي اتجاه قضاياه، هذه القضايا وان

---

[1]. داريوش شايغان، الأصنام الذهنية، المصدر السابق، ص10.

[2]. داريوش شايغان، أوهام الهوية، مصدر سابق، ص36.

[3]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص ص99-100.

[4]. داريوش شايغان، أوهام الهوية، المصدر السابق، ص53.

[5]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص ص106-107.

وان اعتبر منها ما هو مشترك إنساني، فإن منها ما هو خاص ببيئة معينة دون سواها، وبالتالي ما لم يكن خيار الحداثة نابعا من الحاجة إليه، إضافة إلى فهمه من حيث سياقه المعرفي وبعده الحضاري فإنه لن يفي بالتطلعات المرجوة منه.

ثم إن «تكافؤ القوى المؤثرة والتجانس البنيوي للأفكار الفاعلة في التوتر، أداة لولادة جديدة، ولإعادة تشكيل الذات، وإيجاد قوى وطاقات جديدة، وهذه هي بالتحديد الظاهرة التي نطالعها غالبا في صدام الحضارات، وفي النهضات الموفقة نسبيا التي تشهدها ثقافة من الثقافات»[1] مما يفسح المجال واسعا أمام تفعيل الطاقات الخلاقة في استحداث بنى جديدة ترتقي بالإنسان والحضارة.

لكن بالنظر إلى الوضع الراهن فإننا نجد «من جهة هناك سيطرة وقوة وعدوان واستثمار، ومن جهة ثانية هناك سلبية وقصور وموقف دفاعي وشلل، لم تعد المسألة مسألة حوار بين الحضارات، بل هي تدمير حضارات محلية (مختزلة إلى حدود الفولكلور) على يد الحضارة التي غدت حاليا شاملة وكونية. التحدي المعاصر هو أيضا هجوم أفضى إلى انقلاب كامل في القيم والظروف والعادات الدنيوية والأفكار، هجوم هو من القسوة بحيث غدت معه قوى مواجهته مجردة من عنفوانها السابق»[2]. وما لم تتقارب القوى فإن مصير الحضارات التقليدية الأقل قوة هو التلاشي في ظل الحضارات الأكثر قوة.

وبالنظر إلى منجزات الغرب على كافة الأصعدة العلمية والتكنولوجية وحتى الاقتصادية والسياسية «لا يملك عالمنا البائس شيئا عدا كنوز ماضينا الروحية الكبرى. فبماذا يمكن أن نقابل هذا الإنسان المقدام الذي يستغل بمهارة بواطن الأرض والفضاءات الفلكية، ويأتي بالمعجزات بفضل العلم؟»[3]. هكذا تساءل شايغان منبها للوضع الراهن الذي يبين مدى عجز المسلم المعاصر عن مسايرة التطورات الكبرى التي تجتاح العالم يوما بعد آخر.

و الدليل على ذلك على سبيل المثال لا الحصر:عدم قدرة اللغة الفارسية على مواكبة الكم الهائل من المصطلحات الخاصة بحقل العلوم الإنسانية، ناهيك عن العلوم الطبيعية، والأمر نفسه بالنسبة إلى اللغة العربية. لأن الفكر الذي يعكسها فكر بلا موضوع، والقضية قضية تنافر أنطولوجي أكثر منه علامة نقص مادي[4]. هذا بالنسبة لنقل المصطلحات الجديدة تماشيا مع التطورات الحاصلة، ناهيك عن توليد أو خلق مصطلحات جديدة داخل البيئة الإسلامية. ولا ينبغي أن نغفل نقطة مهمة ؛وهي أن نقل هذه المفاهيم من الفكر الغربي دون الالتفات إلى سياقاتها المعرفية، وأبعادها الحضارية، وأسسها الفلسفية لن يسهم في تطوير أو تحديث الفكر الإسلامي، بل سيخلق أزمات جديدة داخل هذا الفكر نفسه.

إضافة إلى أن عدم فهم السياقات العامة التي تنتج مصطلحا معينا يتسبب في خلق فجوات معرفية تؤدي إلى تشويه هذا المصطلح، والحياد به عن معناه الأصلي. ما يدل على النتائج السيئة التي تتركها الترجمة الخاطئة حين استيرادها مصطلحا واستحضاره في غير بيئته.

---

[1]. داريوش شايغان، الأصنام الذهنية، مصدر سابق، ص8.

[2]. داريوش شايغان، أوهام الهوية، ص9.

[3]. داريوش شايغان، ما الثورة الدينية الحضارات التقليدية في مواجهة الغرب، المؤسسة العربية للتحديث الفكري، جنيف، دار الساقي، بيروت، ط1، 2004، ص176.

[4]. داريوش شايغان، ما الثورة الدينية، المصدر نفسه، ص ص184-186

ومن ناحية أخرى فإن الترجمات الرديئة من أهم العوامل المنتجة للاختلالات المفهومية[1].

وهذه الاختلالات التي امتدت من الفكر إلى الواقع، لتشمل حياة المسلم المعاصر في جوانبها المتعددة قد أنتجت ما اصطلح عليه شايغان بالتصفيح؛ و«التصفيح هو في الغالب عملية لا واعية يتم من خلالها وصل عالمين متباعدين لدمجهما في الكل المعرفي المتناسق، يسعى التصفيح إلى سد النقص في التناظر، وإلى المصالحة المعرفية بين جذرين متنافرين شكلا :القديم والجديد، الذين صارا غير قابلين للسبر والمقايسة، بسبب من الانقطاعات التي تفرق بينهما. يقوم التصفيح على مطابقة الأفكار التي ليس لها أي مقابل في الوقائع إلى خطاب فارغ لا أهمية لكونه حديثا أو عتيقا. ولكن هذا التحويل يتم دون إعادة نظر، دون تراجع، ودون انتقاد، يمكن للتصفيح أن يجري بطريقتين متعاكستين لكن نتائجهما تبدو واحدة نسبيا، فهو يمكنه أن يصفح إما خطابا جديدا (حديثا) فوق مضمون حديث، وإما على العكس، خطابا قديما (سلفيا) فوق صميم جديد، في الحالة الأولى سنحصل على التفرنج أو التغربن (نظرا لأن الحداثة ذات ارتباط بالغرب)؛ وفي الثانية سنحصل على التأسلم، وكلاهما لا يطابق الواقع»[2]. ولا يقدم حلولا لإشكالاته الحضارية.

هذا بالإضافة إلى أن «التصفيحات تولد أغلاطا إدراكية، أحكاما خاطئة، ومواقف إزدواجية /مانية، إنها تجمد الحس الانتقادي، تحبس القدرة على التحليل، وتتلذذ بمناسبات وتوافقات وحلول قطعية، وعلى الدوام تنقلب الأفكار على الوقائع، لأن الوقائع تظل متأخرة عن الأفكار. وراء الأفكار هناك قبليات قادمة من تطورات تاريخية أخرى».[3]، وهي هروب من الواقع، وتملص من المسؤولية اتجاه إشكالات الفكر المنعكسة ضرورة على الواقع، وانعكاس للعجز الحضاري.

وهذا ما أدى بالعالم الإسلامي إلى أن يقف عاجزا عن تبني الحداثة أو خلق مسار جديد ؛فلا نحن استطعنا إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولا نحن امتلكنا القدرة على تجاوز التخلف الحضاري الراهن. وهذه الاختلالات الناتجة عن التصفيح يمكن أن تكون معرفية أو نفسية أو جمالية، ما يؤدي إلى تغيير المنظر الاجتماعي والثقافي على وجه الخصوص.

كما أن التقليد الأعمى للغرب يتسبب في خسارة الهوية الذاتية[4]ويطمس معالم الشخصية الإسلامية.

«بيد أن ما نستعيره ليس حتى قيما مباشرة جديدة، وإنما هي قيم مستعملة مستهلكة، ثم إننا نختلف أيضا عن إبداع المذاهب والمدارس، أو عن إنتاج المضادات المبطلة لمفعولها... والأسوأ أن هذه القيم المستهلكة لا تلبي تطلعاتنا بأي حال من الأحوال»[5]. ولا تساهم في إصلاح الواقع، أو على الأقل فهم أزماته الحقيقية التي تعرقل تقدمه، وترسخ استقلالية هويته الثقافية.

لم يكتف شايغان بنقد حالة البين بين وتتبع تأثيراتها على العقل المسلم إن على مستواه الفردي أو الجمعي، بل حاول خلق حلول قد تفي بالغرض أو يمكن اعتبارها كمقاربة للحل.

ويمكن أن تلخص رؤيته في نقاط ثلاث:

---

1. داريوش شايغان، النفس المبتورة هاجس الغرب في مجتمعاتنا، مصدر سابق، ص 147.
2. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص ص94-95 .
3. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص97.
4. داريوش شايغان، الأصنام الذهنية، مصدر سابق، ص83.
5. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص85.

-توفير الوعي اللازم لفهم الوضع، رغم صعوبة الأمر، ف «كلما كان التحدي كبيرا، كانت الجهود الكفيلة بالسيطرة عليه مضنية، والضرورة ماسة لتوفر مستوى من الوعي قادر على تحليل الوضع، وعلى معرفة القوى المتنازعة والوسائل الضرورية لتجاوز المرحلة الصراعية»[1].

-محاولة فهم الانقطاعات التاريخية التي جعلت من الغرب حضنا للحداثة، وجعلت من الحضارات الأخرى في العالم آثارا كبيرة من آثار الماضي"[2] لكن قبل أي خطوة "بين العودة إلى الماضي أو اتباع خيار الحداثة :"نحاول أن نفهم، أن نحلل، ويبدأ وعي التغيير من هذه النقطة بالذات.

-التأسي بالعالم الغربي في مساءلة الانجازات والانتصارات مهما كان حجمها، وقد اعتبر هذا الأمر أهم منجزات الغرب[3]. ما سيجعل الفكر في حركية دائمة، عكس العالم الإسلامي الذي لم يتجاوز أزمته الراهنة لكنه باستمرار يتحدث عن أمجاد ماضيه بكل فخر.

لكن ما يجعل الأمر أكثر تعقيدا هو أننا من جهة نعتقد أننا نحافظ على هويتنا الثقافية، ومن جهة أخرى نعتقد أننا دخلنا في روح الحداثة"[4]. بينما لم نحقق واقعا أي من الخيارين.

إضافة إلى أن «المأثور الشفوي ما زال يلعب دورا كبيرا، والقيم التقليدية والجماعية ما زالت تؤدي وظيفة رئيسية في التعليم.... إن التفكير في هذا السياق لا يعني أبدا تعرية الأسئلة، ولكنه يعني وصل الأسئلة بالأجوبة المعدة سلفا، ... إن الفكر ليس في النهاية سوى تفعيل لما هو كامن في عمق الذاكرة الجماعية، وما سوى ذلك فهو خروج عن مألوف الجماعة»[5]. و هذا ما يجعل مسار الفكر في ركود دائم، كما أنه يوقف كل محاولة للإجابة عن الإشكالات الحالية بما يناسبها لارتباطه بالماضي. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يحصر شايغان تأثيرات الحداثة على العالم الإسلامي في ثلاث نقاط رئيسية:

1 – **التشبث بالماضي والتراث، واعتبارهما مكمن الحلول للأزمات المعاصرة.**
2 – **قبول الحداثة من دون الالتفات إلى الفوارق الحضارية، أو من دون استيعابها بالشكل اللازم.**
3 – **رفض مواجهة تحديات الأزمة الجديدة.**

وردود الأفعال تعبر عن عدم استيعاب الدرس الحداثي وفهمه « فالحداثة في معناها الواسع جدا لم تأخذ كما هي في الحسبان، أبدا أي موضوعيا في دلالتها الفلسفية الخاصة، بل كانت تؤخذ دائما وفقا للتحولات الأليمة التي ألحقتها بتقاليدنا وموروثاتنا، في طرق معيشتنا وتفكيرنا»[6].

1-التشبث بالماضي والتراث، واعتبارهما مكمن الحلول للأزمات المعاصرة

[1]. داريوش شايغان، أوهام الهوية، مصدر سابق، ص5
[2]. داريوش شايغان، النفس المبتورة هاجس الغرب في مجتمعاتنا، مصدر سابق، ص50
[3]. داريوش شايغان، أوهام الهوية، المصدر السابق، ص ص63-64 .
[4]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص36.
[5]. داريوش شايغان، ما الثورة الدينية، مصدر سابق، ص ص173-174.
[6]. داريوش شايغان، النفس المبتورة هاجس الغرب في مجتمعاتنا، ص 11

المتشبثون بالتراث حدثت لهم انقطاعات بين عالمهم الذهني والواقع الذي ينتمون إليه[1]. فمن غير المعقول أن تكون الإجابة المتعلقة بالرهانات المعاصرة هي نفسها التي وردت في التراث الإسلامي، والتي أسست من طرف رجال الدين أو بتعبير البيئة الإسلامية "العلماء ". «علماء الدين باسم الأفكار المهجورة يوجهون توجيها رديئا الثروة الإيمانية الموجودة في الذاكرة الجماعية، يستخدمونها في مغامرات مدمرة »[2]. مغامرات مدمرة للحظة الراهنة التي تبني الغد.

كما أن غياب التفكير النقدي يدخلنا في اختلالات غير معقولة. [3] ويمنع عنا مساءلة المنجزات الخاصة التي تصاب بالركود حين غياب النقد.

يستلزم نقد الدين . كأحد مكونات الهوية الثقافية طفرة في طريقة التفكير، وفهما لدور التجديد الديني في البناء الحضاري، للحفاظ على دور الدين نفسه في حياة الفرد أو المجتمع، باعتباره مصدرا للتجارب الميتافيزيقية، التي ساهمت في الحفاظ على فاعلية الدين والتغيير الذي صنعه في مراحل تاريخية مختلفة.

كما أن «ثقافتنا الغنية، ذات البناء القروسطي لا تسمح لنا بفهم الانقطاعات والانكسارات الكبرى في الأزمنة الحديثة، كما أنها لا تأذن لنا بالإفادة منها. فمنذ عدة قرون لم نعد "نرقص على إيقاع"، ولم نعد نحتك ونتفاعل مع التحولات العظمى التي هزت العالم. وإن هذه المفارقات جعلتنا أكثر تبعية واستلحاقا بالعلم الغربي، والتبعية ثقافية قبل أن تكون اقتصادية أو سياسية»[4].

إن القضايا المثارة بشكل دوري، والبحث باستمرار عن الحلول في الماضي يبين وجود خلل ما"[5] بمعنى أن المسلم المعاصر عاجز بشكل كلي عن الانسجام مع المعطيات الواقعية لبيئته سواء تعلق الأمر بالجانب الفكري أم بغيره من الجوانب التي تقوم بتأطير الحياة العامة له، باعتباره المحرك لها.

ومن ناحية أخرى فإن «كل دين من حيث هو قانون منظم للدولة والمجتمع يظل متأخرا، فالأمر لا يتوقف على إسلام جيد أو سيء، إنما يعود فقط إلى كون الإسلام قد مضى وقته تماما، من حيث هو كليات اجتماعية /سياسية، ولكن هذا لا ينفي جوانب الدين الثقافية والصوفية، ومن هذه الزاوية يمثل الإسلام بلا ريب بعدا مهما من أبعاد التراث الإنساني، أسوة بديانات المعمورة الكبرى الأخرى»[6] وهذه المقولة هي إحدى معيقات تحقيق الهوية الإسلامية الذاتية، باعتبارها نابعة من الإسلام، واستبعاد الدين أو حصره في الثقافة والتصوف هو حل أعرج لا يوصل إلى غاية، لأن الملاحظ للتاريخ الإسلامي يرى بأن الدين كان حاضرا في مسار الحضارة الإسلامية، وكان مسيرا للتحولات الكبرى التي مرّت بها. والمشكلة غير متعلقة بالإسلام كدين، بل بفهم أتباعه له، هذا الفهم السطحي لا يحيط ببنى الإسلام الكلية، ولا يفعّله حضاريا، ما يعني وجوب استنطاق النصوص الدينية وفق اللحظة الراهنة، وربما بمعزل عن اللحظة التاريخية أيضا.

---

[1]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص192.

[2]. داريوش شايغان، أوهام الهوية، مصدر سابق، ص114.

[3]. داريوش شايغان، النفس المبتورة هاجس الغرب في مجتمعاتنا، المصدر السابق ص 39.

[4]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص147.

[5]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص 37.

[6].. داريوش شايغان، المصدر السابق، ص38.

لكن الرجوع إلى الماضي ومحاولة استنطاقه للإجابة عن التساؤلات المعاصرة، ورفض أي إجابة خارج الإطار التاريخي الذي رسمه السابقون يولد الأصولية، و«الأصولية تخفض العقل إلى مستوى الردود الانفعالية والغضبية، وكل سقوط للعقل يحمل في ذاته بذور العجز والوهن»[1]، ويخلق حلول زائفة، ويوقف التقدم الثقافي ليكتفي منه بما مضى. كما أن استفحال الأصولية يخلق أزمات مع الآخر المخالف دينيا مما يعرقل مسار حوار الحضارات.

ومن ناحية أخرى «فإن إيجاد مدارات ثقافية يمكن عزلها عن موجات الحداثة المتعاقبة لهو وهم محض. زد على ذلك أن كل احتمال رجوع، كل يقظة للأصولية، في أي شكل كان هي وهم أيضا. فالتراث مهما عاش لا يمكنه العودة إلى نقطة انطلاقه الواقعة فيما قبل الحداثة»[2]، وعليه فلا ينبغي تجاهل التغيرات الزمكانية في البيئة الإسلامية.

إذن «هكذا يقع الدين في فخ مكر العقل :فالدين حين يريد الوقوف ضد الغرب إنما يتغربن ويتفرنج، وحين يريد روحنة العالم، إنما يتعلمن، وحين يريد إنكار التاريخ إنما ينزلق فيه كليا، على هذا النحو يجري كل مضمون تقليدي مهما كان أصله ويسيل في المقولات البنيوية التحتية للجذر الجديد، وبنظارات اجتماعية يعاد مجددا تفسير القيم التي تظل تاريخيا سابقة للحداثة. تشكل الثورة، العلاقات الإنتاجية، التاريخ، الإسهام الإناسي للعلوم، إطارا جديدا لاستيعاب أي مضمون تقليدي، داخل النطاق هذا يكمن المضمون المتنزل من الرؤية القديمة للأشياء أن يكتسب رجعا جديدا، لكنه لا يكتسب أبدا معنى جديدا. يمكن للأفكار أن تظهر جديدة، أصيلة لكنها تظل "الرؤية المحلية لسلوك كلي قوي بقدر ما يمثل شكلا لا واعيا من التفرنج»[3].

و«لا يكمن خطر التأسلم الكبير في مغالاته فقط وتقلباته وشطحاته خارج الزمان والمكان، بل يكمن أيضا في عجزه عن إقامة نظام تاريخي له بنيته، وفي نشره الفوضى، والفوضى تفيد العناصر الأكثر تخريبا، التي تنتظر دورها في كواليس السلطة»[4].

من الخطأ التحدث عن الإسلام من دون وضعه في الإطار التاريخي الخاص به «فالإسلام لا يمكن أن يتطابق مع التعصب، إنه رؤية دينية للعالم لها معتقداتها وطقوسها وقواعدها الأخلاقية، وشبكة علاقاتها الاجتماعية. ويبقى الإسلام على صعيد المعتقد، دينا توحيديا متمحورا حول وحدة الخالق والوحي، وبهذا المعنى فإن له أصلا نبويا يتطابق مع أصل الديانات الإبراهيمية، كما يتمتع أيضا بفلسفة غنية ذات تعبيرات رمزية»[5].

وإذا كان الإسلام كجوهر روحي خالدا فهو كعادات وتقاليد وإدراك خاضع للتاريخانية. أما أن ترفع راية الإسلام باسم القانون الديني الذي يفرض فرضا، فهذا يعني النزول به إلى مستوى المقولة الصارمة المتحجرة. وأقدّر أن من الممكن أن يبقى المرء المسلم مسلما دون أن يعلن هويته الدينية، وربما كان رأيي هذا طريقة حديثة في النظر إلى الدين نظرة جديدة»[6].

[1]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص43.

[2]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص49.

[3]. داريوش شايغان، المصدر السابق، ص ص96-97.

[4]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص 120.

[5]. داريوش شايغان، أوهام الهوية، مصدر سابق، ص111.

[6]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص112.

«إن غزو الدين لعالم سبق أن انزاح عنه وتخطاه تاريخيا قد أدى إلى نزع القداسة عن الدين نفسه»[1]. بناء على الممارسات التي تشرعن لنفسها باسم الدين، ومن هنا فإن شايغان يصرّ على فصل الدين عن الحياة العامة للإنسان باعتباره ممارسات خاصة لا ترقى ربما إلى الممارسة العملية كجزء لا يتجزأ من الحياة العامة للأفراد والجماعات.

كما أن تغليب الفقه على الجوانب الأخرى للدين الإسلامي ساهم في تخفيف المنابع الروحانية التي طالما كانت المحرك الأكبر لغنى الثقافة الإسلامية.

«إذا كان الإسلام كجوهر روحي خالدا مثله مثل سائر الديانات الأصلية، لأنه قادر على الإجابة على أسئلة الإنسان الوجودية، فإن الإسلام كعادات وشعور خاضع للتاريخانية، أي لإعادة النظر بنظام السلوك المتعلق به، ولشك الحداثة الذي لا يزال منذ قرون يقضم الصروح الميتافيزيقة القديمة من هذا العالم. وفضلا عن أن تقديس الشريعة يحول دون تمكن المسلمين من إقامة هذا التمييز الرئيسي فإن الأقل تبصرا من بينهم يرفضون الدخول في تحدي الأزمنة الحديثة، ولهذا فهم ينسون، وربما بسرعة كبيرة أن الإسلام ليس حديث العهد، وأنه يمتلك كل التراث الفكري الضروري ليدافع عن نفسه، وليحافظ على ذاكرته الجماعية الغنية، وذلك من دون اللجوء إلى الوسائل الأكثر تطرفا»[2].

«سبب آخر لسوء الفهم يعود إلى أننا نعيش في عالم منفتح تصبح فيه التعددية أكثر فأكثر شرطا لازما للتعايش بين البشر... ما يعني أن الانغلاق ووسواس الهوية لا يمكن أن يتجسد في المجتمعات المنفتحة»[3]. والإسلام نفسه قد كرّس في النصوص المؤسسة للتعددية وجعل الاختلاف سنة كونية، وكانت سمة بارزة في العلاقة بين الإسلام وغيره من الديانات أو الثقافات، ولا يعني هذا ضرورة أن المسلمين قد التزموا بهذا المبدأ طوال تاريخهم.

الثقافات التقليدية «تحصن الإنسان وتقيه بالتحديد من كل مغامرة شاقة. إن كل أسباب الراحة والطمأنينة في التراث تعود إلى كونه يقدم أجوبة ملموسة على القلق الميتافيزيقي للإنسان. فالإنسان المصان والمحمي ثقافيا يعرف من أين يأتي، وإلى أين يذهب، ويملك إحداثيات دقيقة في الدنيا كما الآخرة»[4]. بينما القلق الوجودي الذي تسببه الإشكالات الإشكالات المعاصرة كفيل بأن يجعل الإنسان في حيرة دائمة، في محاولة منه للبحث عن إجابات وافية بمستلزمات المرحلة التي يعيش فيها والظروف التي تنطوي عليها.

2- قبول الحداثة من دون الالتفات إلى الفوارق الحضارية، أو من دون استيعابها بالشكل اللازم:

أراد المفكرون المحدثون في العالم الإسلامي تجاوز الأزمة الحضارية، ولم يكن خيار الاستناد على التراث في ذلك واردا، لوجود محاولات سابقة أقل ما يقال عنها أنها لم تبلغ النجاح في استحضار الحلول التاريخية، واستنطاقها على واقع المسلمين.

«لم يكن ممكنا أن يأتي العمل التفكري من جانب علماء الدين، ولا من جهة المتعلمين التقليديين، بل من وسط المثقفين الجدد الواقعين في موقع وسط، الذين كانوا يعون كل الدلالة الكارثية للتأخر التاريخي»[5]. وكان معظمهم متأثرا

[1]. داريوش شايغان،المصدر نفسه، ص102.

[2]. داريوش شايغان، المصدر السابق، ص 146.

[3]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص114.

[4]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص107.

[5]. داريوش شايغان، النفس المبتورة هاجس الغرب في مجتمعاتنا، مصدر سابق، ص199.

بالمدارس الفلسفية الغربية، لذلك أرادوا إسقاط النموذج الغربي على مجتمعاتهم.

إن فقدان الهوية الحضارية يجعل الفرد أو الجماعة في سعي لإيجاد هوية جديدة يستند عليها في بنائه الحضاري، و الثقافة الغربية المستوردة في احتكاكها واتصالها بالحضارات غير المحصنة . كما أسماها . تشكل مجرد مسوخ غربية[1]. لاستحالة تحققها كنموذج كامل، ولاختلاف الظروف الزمكانية التي تسمح بذلك.

«إن المزج بين الثقافات والخلط بين مستويات الوعي المقابلة في معظم بلدان العالم الثالث، يبقى أمر غير منطقي وغير ملائم. فهو يحصل داخل البلد الواحد بين النخبة والجماهير، وهو يحصل على الصعيد الكوني بين الشمال والجنوب، نخبة متغربة من الموظفين والجامعيين والتكنوقراط والصناعيين إزاء كتلة غير مندمجة تعيش خارج التاريخ، والدمج بينهما صعب»[2]. وهذا ما يفسر عجز المثقف في العالم الثالث عن الانسجام مع مجتمعه، ناهيك عن تقديم حلول للأزمات التي يتخبط فيها.

هذه الوضعية التي أنتجت ما أسماه شايغان بالوهم المزدوج، حيث «يتجسد على التوالي في تغريب مكثف، وفي استيلاب تدريجي، إلا أن التغريب ليس وعيا للفكر الغربي ؛إنه على العكس من ذلك سلوك سلبي يشل الحركة حيال انتصاراته العجيبة، وافتتان مبهر، وإعاقة شبه نفسية، دون الدخول في العقل الذي يحرك ديناميته»[3]، ما يؤدي إلى فقدان الهوية، وهي الحضور الحضاري المعبر عن الذات.

3-رفض مواجهة تحديات الأزمة الجديدة :

إن اتخاذ الحياد حيال الوضع الراهن كصورة من صور العجز عن البناء الحضاري أدى إلى تفاقم التخلف وفقدان الوعي اتجاه أزمات المجتمع المسلم، و«لئن كان الوعي قد انكمش تاريخيا أمام الأزمات التي مهدت للحداثة، فقد تمكن من التكيف مع المستجدات، ولكن حين لا يكون الحال هكذا، فإن الأفكار الجديدة حين لا تجد أي مرسى لها، إنما تجمد فوق صميم لا يمكن سبر غوره تاريخيا، ويكون من جهة ثانية غير جاهز إطلاقا لاستقبالها، وأقل استعدادا لاستيعابها»[4].

«يبقى أنانا أنا متخلفا، مرتهنا، إن بالنسبة إلى الحداثة أم بالنسبة إلى التراث»[5].

بالإضافة إلى أن غياب المثقف عن الحياة الفكرية والاجتماعية[6]. عرقل تطور الفكر المسير للمجتمع. وجعله بمعزل عما عما يحدث.

وتحدث شايغان عن آراء المسلمين التي تقول باستيراد التقنية من الغرب دون الفكر المؤسس لها. وفي ذلك لخص حلول المشكلات الحضارية الحالية للعالم الإسلامي في استعادة النماذج المثالية من العصر الذهبي غرقا في التاريخ، وتشبثا بالماضي. وفي ذلك تتنوع ردود الأفعال اتجاه القضية كما يأتي:

---

[1] داريوش شايغان، ما الثورة الدينية الحضارات التقليدية في مواجهة الغرب، مصدر سابق، ص 161.

[2]. داريوش شايغان، أوهام الهوية، مصدر سابق، ص108.

[3]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص 50.

[4] داريوش شايغان، النفس المبتورة هاجس الغرب في مجتمعاتنا، مصدر سابق، ص 78.

[5]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص80.

[6]. داريوش شايغان، النفس المبتورة هاجس الغرب في مجتمعاتنا، مصدر سابق، ص ص155-160.

1. نزعة المصالحة:أي المواءمة بين التقليد والحداثة . رغم كل الفروقات العميقة .

2. نزعة العلمنة :التي تريد من داخل احترامها للتقاليد أن تقصيها إلى الصعيد الذاتي، أي اعتبارها شأنا فرديا خاصا.

3. المطالبون بالعودة إلى الإسلام كمنهج حياة وتحكيم الشريعة :وقد انتشرت هذه النزعة بدءا من الخمسينات تحت ما سمي بال"الإسلام الثوري "[1].

«بيد أنهم قليلو العدد حسب معرفتي . كما يقول شايغان . أولئك الذين سعوا إلى تعميق المعنى الفلسفي للتأخر، وأشكال القطيعة التاريخية التي وفرها لها. ولم يبدل الاهتمام لفهم الحلقات المتكررة من الإخفاق، ولم يطرح هذا السؤال على أهميته :كيف يحصل أن الآذان ما تزال تصم من سماع المشكلات ذاتها منذ أكثر من قرن، من غير إيجاد حل لها ؟»[2]. وهو سؤال جوهري يعبر عن عمق الأزمة الحضارية التي يعيشها المسلم المعاصر.

«ولأن داريوش ينتمي إلى ثقافة شرقية تسكن وجدانه العميق، فهو يراهن على ما تزخر به قيّم روحية ومعنوية، تمد الكيان البشري بطاقة هائلة تقفز به على أزماته، إلا أن ذلك لا يفي بالمقصد، فتكتمل دورة الأداء بمنهج النقد الذي يدين فيه إلى الغرب الذي يحبه، وفي الوقت عينه يؤمن بتجاوزه لا بإلغائه، ودائما بالحذر من الوقوع في الوهم المزدوج، وهم ناشيء عن الظن بامتلاك هوية تاريخية ناجزة، ووهم الانتماء إلى روح الحداثة وعالمها»[3].

وبين هذا وذاك، و«من أجل إنقاذ المغازي الكبرى في الدين والتراث، والبقاء في الوقت ذاته داخل التاريخ، لا في اللامكان، علينا أن نزمّن المجتمع أن ندنيوه. ذلك أنه من غير الفصل بين الإيمان والمعرفة، لن يكون هناك حقوق، إذن لن تكون هناك ديموقراطية. ومن دون أخذ مسافة عن تراثنا الخاص، وتمثل واضح لا لبس فيه للمنجزات التي لا يمكن الالتفاف عليها في الحداثة، لن تكون معرفة نقدية بالذات، وبخاصة لن يكون أمل في أن نقوّم تقويما سليما الموروث الثقافي في التراث الإسلامي»[4]. المعرفة النقدية بالذات وللذات إحدى دعائم تقويم الأنا ومسارها الحضاري.

«لن يتغير شيء طالما بقيت مستويات الوعي داخل المجتمع مختلة تاريخيا، لأنه ينبغي من أجل الإمساك بروح العصر، التحرر أولا من رقابة كل هذا الغطاء من المعتقدات الخاطئة الآتية إلينا من العصور البالية ؛وفي سبيل ذلك ينبغي أن يعاش داخليا فشل اليوطوبيات الخداعة»[5]وهذا الكلام إن انطبق على العقائد السلبية التي جنت على العقل والإبداع الفكري لدى المسلمين فالأمر مقبول بل لا بد منه. أما أن يؤخذ هذا الكلام عموما فإنه سيزعزع الهوية التي أنفق شايغان الكثير من وقته وجهده في سبيل بيان الوضع الخطر الذي لعبته في واقع العالم المعاصر. إن التخلي عن العقيدة الحقة في سبيل خيار الحداثة أو غيره يعد ضربا من المجازفة التي لا تحمد عواقبها. وفي النهاية فإن أي تطور قد يحمله متنكر لثقافته، ومتملص من عقيدته لن يكون في مستوى التحديات التي تواجهه، لأن التخلي عن ذلك هو تخل عن الذات.. وفقدان الهوية لا يقيم حضارة مهما اختلفت التسميات التي تطلق عليها.

كما أنه جعل إنقاذ الروحانية مرهونا "باستخصاص (جعل الشيء شأنا خاصا)الدين، وتزمين المجتمع، وإخلاء الحيز

---

[1]. داريوش شايغان، أوهام الهوية، مصدر سابق، ص ص72-73.

[2]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص73.

[3]. الحاج دواق، أوهام الهوية :العالم والتحول الجذري قراءة في كتاب داريوش شايغان، مرجع سابق، ص ص 7.6.

[4]. داريوش شايغان، أوهام الهوية، مصدر سابق، ص130.

[5]. داريوش شايغان، المصدر السابق، ص110.

العام من سلطان الصور والمعتقدات التي لا وطن لها، والتي لهذا السبب لا يمكن إلا أن تكون مؤذية للإنسان، في هذا الإطار المكسور الذي تفرضه علينا بيئة الكون المنفتحة. "[1]. وضرب مثلا بالحجاب وجعله تشويها للنظام العلماني حين ترتديه المسلمة بتحد في غير بيئته.

«لأن الحداثة أي البيئة العقلية اللازمة، تحدد الشروط بصورة إجمالية لخلفية وجودنا الأولي والمناخ المحيط الذي نعيش فيه والحيز الذي يظللنا وفيه ننمو، والبنى الابستيمولوجية التي تمنح الأشكال لقوالبنا المعرفية»[2]. وكل عودة إلى الماضي وهم، لأنها تزعزع مساحة التوافق مع الحاضر، ناهيك عن محاولة بناء مستقبل أفضل.

ولكي نعي موقعنا من التاريخ المعاصر «ينبغي أن نعرف من نحن، عندما نعود بلا انقطاع إلى مرجعية الإسلام، ماذا نعني بالصواب؟إسلام الفقهاء، أم إسلام الحكماء، أم إسلام العرافين؟لا شك أن مختلف وجوه الإسلام هذه تنهل من الينبوع ذاته الوحي القرآني، إلا أن سبيلهم للمقاربة والمعايير التي تقاس فيها وتبني هذه الوجوه لا تنطبق بالوتيرة ذاتها على المسلم. فهناك طرق شتى لأن يكون المسلم مسلما، كما أن هناك طرقا شتى ليكون الإنسان إنسانا، ذلك أن أنماط الوجود مشروطة بأنماط المعرفة»[3]، ولا يمكن عزلها عنها.

وكمقاربة لحل الأزمة كما يرى شايغان فعلينا «إعادة تشخيص كافة المفاهيم الوافدة علينا طيلة القرن الأخير، وبعبارة أخرى علينا تعلم التفكير من جديد، وأن نتعرف على أنفسنا كما هي لا كما نظنها، ونكون ما نحن عليه فعلا»[4].

ثم إنه «إذا عرض أفضل ما يوجد لدى الشرق والغرب فربما أمكن إعادة بناء هذا الكل المبضع، ونقصد به الإنسان الحديث»[5]. تجاوزا للاصطدام والتحيز الجغرافي وفتحا لآفاق حوار يسع الإنسانية جمعاء.

التغريب اللاواعي واصطدام التراث والحداثة:

دائما ما نتجاهل أن التقنية والعلم في الغرب مرتبطة بالفكر أساسا، وأن تيار العلمنة القديم كان ساريا في هذه الانتصارات، ولا يمكن فصل التقنية عن الفكر الذي استندت عليه بداية.

ثم إن التغرب يأتي من كوننا لم نع النقلة المحتومة التي عشناها ونحن ننغمس في الشبكة الكوكبية لعالمنا، فلم نتفطن إلى ذلك التنافر الكامن، ومن كوننا كنا نبحث عن أسباب التفاوت بيننا وبين الغرب في الوقائع الخارجية عوض البحث عنها داخل بنانا الذهنية، وهكذا فإن التغرب يظهر في آخر المطاف في مظهر وعي مزدوج الزيف، يشوه في الوقت نفسه الأفكار المفروضة علينا، والتي ندعي فهمها كل الفهم، وتلك الخاصة بنا والتي نرغب باسمها في التخلص من الأفكار الأولى». [6]وهذا نتاج الهيمنة الغربية، فتأثير الحضارة الأقوى لا يظهر على المستوى التقني فحسب، بل على مستويات أخرى اجتماعيا وثقافيا، وحتى من دون أن تعي الحضارة الأضعف مقدار التحولات التي تسري بداخلها.

«فالتغرب كان ماثلا في كيفية تعقلنا للأشياء، وفي المقولات التي تصوغ قوالب نمط إدراكنا، والتي نريد التمرد عليها، إن

---

[1]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص ص114-115.

[2]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص ص 115-116.

[3]. داريوش شايغان، المصدر السابق، ص ص122-123 .

[4]. داريوش شايغان، الأصنام الذهنية، ص24.

[5]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص89.

[6]. داريوش شايغان، ما الثورة الدينية الحضارات التقليدية في مواجهة الغرب، مصدر سابق، ص171.

تأثيره يتجلى على نحو لا منظور في طريقة حضورنا في هذا العالم بالذات، ومهما حاولنا فلا يمكننا أن نتحرر من سلطانه، ولا يمكننا أن نبدأ التاريخ من الصفر لكي يفيد انطلاقا من هذه النقطة المحايدة صياغة العالم وفق نظرتنا الخاصة، وإعماره من جديد وفق آمالنا واهتماماتنا »[1].

إن خلط عالمين مختلفين يخلق قطيعة مع الأفكار المستوردة من جهة ومع الإرث الحضاري للجهة المستقبلة من جهة أخرى. «وفي حين تبدو الحداثة أمرا واقعا لا يمكن الإحاطة به، فإن التقاليد في صورتها الراهنة لم تعد التقاليد التي كانت، فهي كلها تشكو من عوز ونقصان في محتواها وجوهرها، ومن تلف متصاعد أصابها على صعيد توازنها العضوي، كما في إطار البيئة الملائمة لها، والمساعدة على رسم ملامح عالم متجانس يناسب نظرتها إلى العالم. بين طرفي التناقض هذين، أو إذا شئنا هذين النمطين المتنافرين تبرز حالة وسطية جديدة هي ما أسميه حقل التهجين، حيث تخلق الانزلاقات والانجرافات الأرضية مجالا واسعا من الاعوجاج »[2].

«هذه الظاهرة التعريفية ظاهرة الوعي المغلوط، والتي أطلقنا عليها في مكان آخر اسم التغريب اللاواعي، وهي التي تفعل فعلها بعنف يفوق عنف الحداثة، كحداثة لا تقوم على أساس وعي واضح. وما نسميه هوية ثقافية ليس في الأغلب وللأسف سوى وهم، أو إذا شئنا صورة مزيفة للذات»[3].

وهدا عائد إلى أن إسقاط نموذج مستورد في غير بيئته يجعل تأثيره مغايرا لما أريد له في بيئته الأولى، لاستحالة خلق التغيرات والتطورات التي صاحبت وجوده. كما أن "الحضارات غير الغربية لم تشهد هذه التغيرات، بل تلقتها بالوكالة[4]. بالوكالة[4]. لكن في الوقت نفسه فإن الانقطاع عن الذات الثقافية يولد الاغتراب والتيه الحضاري.

«إن هذه الثغرات الفاغرة (عدم فهم البنى المفهومية الكامنة وراء شتى مراحل التاريخ الغربي) لا تتوصل إلى تكوين مجمع معرفي متناسق، أو بما أنها تشكل ثقوبا في شبكة المعارف فإنها تستسلم للامتلاء بالاستنتاجات المتسرعة والمزاجية جدا، التي يتخيلها القراء غير المتنورين، بحيث تتكون عن هؤلاء المفكرين التعساء النظرات والرؤى الأكثر تشوها، إلى الاختلالات الكثيرة جدا في المصطلحات... وتتراكم المفاهيم الخاطئة وتتضخم مثيرة بدورها مفاهيم خاطئة أخرى أكثر فداحة، بحيث ينتهي الأمر بنا إلى العيش في عالم مرايا مشوهة، حيث تكون الأفكار الجوهرية كلها فاسدة في أساسها بطريقة ما، إن هذه الاستيعابات الزائفة تخلق وعيا فاسدا يكون أشد ضراوة من الحس النقدي، الذي يكون قاصرا (حين يرمي إلى تفكيك الأفكار وربطها بسياقها المناسب. زد على ذلك أن الفكر يكون متجها نحو الأسطورة، وذلك بحكم شحنته الدينية (اللاواعية غالبا)، وأن سلطة الفكر التحليلية الساعية إلى تفكيك الأشياء وخفضها إلى عناصرها البسيطة لم تتجذر فيها تمام التجذر، عندئذ تهيمن السلطة التلفيقية، وتقوم بصهر عشوائي للأفكار الأشد تعارضا، وتؤول إلى اصطناع مفاهيم مختلطة تعكس بهذه الطريقة منطقة تهجين مفهومي»[5]. وهو يدل على عدم فهم السياقات المعرفية التي تنتج التغيير الحضاري وتسيره، وهو ما سينعكس ضرورة لا على مجال الفكر فحسب، بل وفي حياة الأفراد والمجتمعات أيضا.

---

[1]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص170.

[2]. داريوش شايغان، أوهام الهوية، مصدر سابق، ص96.

[3]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص96.

[4]. داريوش شايغان، المصدر نفسه، ص 68.

[5]. داريوش شايغان، النفس المبتورة هاجس الغرب في مجتمعاتنا، مصدر سابق، ص174.

«هذا التغرب اللاواعي يتجسد في ميدان الفكر والفن والسلوك الاجتماعي، وكذلك في نمذجتنا للإنسان الذي من المفروض فيه أن يجسد هذه الطريقة في الحضور في العالم، ففي ميدان الفكر نحن إزاء فكر بلا موضوع، بل بلا أساس، وفي ميدان الفن نصطدم بفن بلا "محل"، وفي ميدان النمذجة الأنثروبولوجية نصادف إنسانا هو الصورة المعكوسة التي كانت مثالنا الأعلى، وأخيرا، وفي ميدان السلوك الاجتماعي نحن إزاء وضعية عبثية لم تكن هي تلك التي حدثنا عنها كتاب مرحلة البين بين، بقدر ما هي وضعية عبثية فريدة في نوعها، نجمت عن التداخل الصارخ بين مستويات ثقافية متنافرة»[1].

كما أن «التعارض بين الإسلام والعلمنة يعبر عن قلق عميق يهز المجتمعات الإسلامية وحتى أوروبا»[2]، لكن علمنة المجتمعات الإسلامية أو أسلمتها لا يحل أزمة الهوية الثقافية باعتبارها نابعة من التخلف الحضاري، ومعالجتها لا يكفلها الانحياز إلى منظومة دون أخرى، سواء كان ذلك إحياء لتاريخ مضى وانقضى، أو كان بثا لروح الحداثة، يبقى الوعي بمتطلبات المرحلة الحالية وبمستوى المفارقات بين الحاضر والماضي وبين الأنا والآخر مقاربة للبحث عن إجابة للإشكالات المطروحة.

خاتمة

---

[1]. داريوش شايغان، ما الثورة الدينية الحضارات التقليدية في مواجهة الغرب، مصدر سابق، ص 171.

[2]داريوش شايغان، أوهام الهوية، مصدر سابق، ص 111.

إن داريوش شايغان وهو يحلل أزمة الهوية المعاصرة قد يربطها أحيانا بالعالم الثالث أو بالحضارة الإسلامية وأحيانا أخرى فإنه يتناول الموضوع بأبعاد شاسعة أي بالحضارات التقليدية.

وفي تحليله للموضوع يتخذ من الواقع الإسلامي المعاصر مجالا للنقد، هنا حيث الذات الإسلامية تبحث عن ذاتها وأي ذات تلك التي تريد أن تعود إليها.. يؤكد شايغان أن العودة إلى الذات ضرب من المحال، باعتبار عدم وجود هوية واحدة في العالم الإسلامي وذاك خاضع للتقسيمات الدينية والسياسية. ولا يمكن الاستناد إلى هوية واحدة في العالم الإسلامي لاتساع مشاربه الفكرية وبناه العقائدية وانتماءاته الطائفية! ولحل أزمة الإسلام والحداثة ينبغي فهم إشكالية الصدام والمفارقة المعرفية والحضارية.

إن المسلم المعاصر الرافض للحداثة لا يعي مقدار التحديث الذي لحقه، وانعكس في سلوكه إن على مستوى الأفراد أو الجماعات، ولم يعد تأثير الحداثة خافيا. ما أنتج تغريبا لا واعيا، هذا الأخير لم يكن خيارا نابعا من الحاجة إليه، وإنما فرضته الظروف الراهنة، والتطورات التي وصلت إليها البشرية، وهو نتاج عدم استيعاب النقلة التقنية والعلمية وعدم الاندماج في رؤية متماشية مع ذلك في العالم المعاصر،

وهو أخطر من تبني الحداثة لتكريسه خليطا من المفاهيم المتباعدة في سياقاتها المعرفية.

شايغان بحث لنفسه عن إجابات شافية من ماضيه، هذا الأخير بات عاجزا عن الاستجابة للإشكالات الجديدة. إضافة إلى أن الخوف من التجديد هو العائق الأكبر أمام مساعي التغيير.

وقد ركز على بيان نقطة مهمة وهي أن الإسلام والحداثة نمطين مختلفين، ومقارنتهما أو محاولة التوفيق بينهما إخلال بالقواعد التي تحكمهما سواء على الأساس الديني أو الفلسفي. وعدم استيعاب هذا الأمر هو ما يخلق أزمات جديدة إن على مستوى الأفكار أو على مستوى تطبيقاتها الواقعية. كما أن استعارة المفاهيم من الفكر الغربي من دون الالتفات إلى سياقاتها المعرفية، وأبعادها الحضارية لن تسهم في تطوير مسار الفكر الإسلامي بقدر ما ستأزمه أكثر. ولا يمكن تحديث أي مجتمع ما لم يكن التحديث مطلبا نابعا من ظروف هذا المجتمع نفسه في ظل بنية ذاته الحضارية.

كما أن عقدة الغرب كلما تضخمت أحدثت تصدعات على مستوى الأنا الخاصة. وكان من نتائج الصدام الحضاري توازن مختل بين الشرق والغرب، وهذا ما أنتج الاستعمار، وأدى إلى صراع الحضارات بدلا من حوارها.

قائمة المصادر والمراجع

1. الحاج دواق، أوهام الهوية والتحول الجذري قراءة في كتاب داريوش شايغان، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط
2. داريوش شايغان، الأصنام الذهنية، والذاكرة الأزلية، ترجمة حيدر نجف، دار الهادي، بيروت، ط1، 2007، ص31.
3. داريوش شايغان، النفس المبتورة هاجس الغرب في مجتمعاتنا، دار الساقي، لندن، ط1، 1991.
4. داريوش شايغان، أوهام الهوية، ترجمة محمد علي مقلد، دار الساقي، بيروت، ط1، 1993
5. داريوش شايغان، ما الثورة الدينية الحضارات التقليدية في مواجهة الغرب، المؤسسة العربية للتحديث الفكري، جنيف، دار الساقي، بيروت، ط1، 2004.